بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

نشأت منذ طفولتى المبكرة على اعتقاد راسخ بأن من يخطىء فى تشكيل حرف من القرآن فقد ارتكب إثماً مبينا ، ولقد قادنى ذلك الاعتقاد إلى الحرص الشديد عند حفظ الآيات أو تلاوتها على التزام الضبط والشكل . وحفرت فى ذاكرتى صورة ذهنية غامضة عن « الكلمة » بشقيها الأرضى البشرى والسماوى المقدس . وشرعت أبحث عن مفهوم « القداسة » ومعناها . وكان قد استقر فى يقينى أن القرآن هو « كلام الله » وأنه – دونًا عن كل الكتب السماوية الأخرى – لم ينله التحريف . إنه كلام الله ننطقه كما أوحى به . إنه أثر مادى ملموس من آثار الله على الأرض ، إلا أنه ليس شيئًا مخلوقًا كالسماوات والأرض . إنه جزء من ذاته المقدسة .

من هنا ترسخ فى تفكيرى (الطفولى) أن « للمثال » مـــكان على أرض « الواقع » وأن التعايش بينهما أمرٌ طبيعى ، بدليل وجود القرآن بيننا ، حقيقة واقعة لا تقبل الجدل ، هو هو تمامًا كما نزل من السماء ، لا يرفع مجروراً ولا ينصب مرفوعًا . أما عن كيفية حدوث ذلك ، فهذا ما اعتبرته مسألة وقت فلن ألبث حتى أتم تعليمى وأصبح رجلاً ، فأعرف كل شيىء .

فالعقل موجود ، والعلم فى الكتب ، ولكل سؤال جواب . والجواب لا شك سيكون دقيقًا وواضحًا ، تمامًا كدقة القرآن ووضوحه . وعرفت طريقى إلى القراءة ، سعيًا وراء المزيد من « الحقائق » . فقد صوَّر لى تفكيرى الطفولى أن كل ما ينشر هو حقائق ، لا مجرد اجتهادات وآراء وتصـــورات ومحاولات للتفسير . باختصار ، كانت نشأتى مثالية ساذجة .

ومرت الأيام ، حتى جاءت ليلة مولد السيدة سكينة ، فدخلت المسجد أستمع إلى تلاوة القرآن من أحـــد مشـــاهير المقرئين ، فإذا به يتلو آية واحدة مرتين . فى المرة الأولى سمعت كلمة « فتبينوا » ، وفى المرة الثانية سمعته يتلوها « فتثبتوا » . واختلط علىَّ الأمر ، فلم أجد تفسيراً لما يحدث . ثم

حدث هرج ومرج بين المستمعين ، وتعالت بعض الأصوات بالاحتجاج ، وارتبك المقرىء ، ثم ما لبث أن غادر المسجد من فوره ، يكاد يتعثر من فرط هرولته ، محاطاً بثلة من الحاضرين . وانفض المولد ، وانقض التساؤل يكاد يدهم رأسى . ما معنى ما حدث ؟ مستحيل أن يخطىء المقرىء ، فهو من مشاهير الإذاعة . إنه لا شك يعلم تماماً ما يفعل ، بدليل أنه قرأ « فتبينوا » مرة ، ثم قرأ « فتثبتوا » فى المرة التالية . فلا الخطأ وارد ولا النسيان أيضاً . ولو كان الموضوع فى إطار « الخطأ أو النسيان » فهو مرفوع عنه مغفور له بنص الحديث . فما الداعى إذن لتذمر الحاضرين وحدوث ما يشبه الفتنة ؟ .

لقد تعمد المقرىء إذن . !! ويل له . . . أتحريف فى كلام الله ؟ وفى كلمة كاملة ؟ ومن حامل للقرآن ؟ . . . لابد أن فى الأمر سراً .

ودارت الأيام ، إلى أن جاء اليوم الذى فتحت فيه إحدى كتب التفسير . وبدأت بتفسير الفاتحة . فإذا بى أفاجأ بأنه يفسر ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ مرة ، ثم يفسر « ملك يوم الدين » مرة أخرى . ويسهب فى محاسن هذه مرة ويعدد إعجاز الأخرى ثانية ، ثم يسميهما « قراءتين » .

ولم أفهم ماذا يعنى بقراءتين . بل هو قرآن واحد ، يتلى علينا ليلاً ونهاراً بتلاوة واحدة . وأنا أعرف جيداً أننا نقرأ الفاتحة بـ (« مالك » يوم الدين) . هكذا تتلوها أئمة المساجد فى كل صلاة جهرية . وهكذا أسمعها منذ وعيت على الدنيا تتلى فى الإذاعة . وهكذا لقنتها منذ طفولتى فى المنزل ، ثم فى المدرسة . أنا لا أعرف سوى « مالك » . أنا لا أعرف « ملك » . أنا غير قادر على استيعاب الأمر .

وهكذا بدأت تنشأ الفجوة فى رأسى بين « المثال » الذى كنت أعتنقه وبين « الواقع » الذى بدأت أصطدم به ، ولا أفهمه .

وتتالت الأعوام ، تحمل فى كل مرة جديداً . فأثناء زيارتى لبلاد المغرب لاحظت اختلافا ما فى التلاوة ، عزوته مرة لاختلاف اللهجة ، وأخرى للإهمال والتأخر فى اللحاق بمصرنا العزيزة – أم الدنيا – وبلد الأزهر الشريف ، جامعة العلوم الإسلامية . وتأسفت كثيراً لأحوالهم . حتى تصادف ذات يوم أن لفت انتباهى أن المذيع كان يقدم للتلاوة مرة بأنها برواية حفص عن عاصم ، وأخرى بأنها برواية ورش عن نافع .

وبدأت أربط لأول مرة بين التلاوة والراوى . إلى أن وزع علينا فى العمل

ذات يوم إعلان مطبوع لبيع وتسويق المصحف المرتل مسجلاً على شرائط كاسيت ، موضحاً به العديد من البيانات ، مثل السعر نقداً وبالتقسيط لمجموعة من كبار المقرئين . واستوقف نظرى أن التسجيلات جميعها برواية حفص عن عاصم ، سوى واحد فقط ذكر أنه برواية ورش عن نافع ، فاشتريته . وعندما استمعت إليه ، تذكرت التلاوة بالمغرب .

وقادتنى تلك الخطوة إلى متابعة الجهد على طريق البحث عن الحقيقة ، فتوجهت إلى مكتبات الأزهر ، فابتعت مصحفاً « طبع بالرسم العثمانى على رواية الإمام ورش » وأقر صحته مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر !! .

وباجتماع المصحف المرتل المسموع ، والمصحف المطبوع ، برواية ورش عن نافع ، أدركت للمرة الأولى حقيقة جديدة ، وهى وجود قراءتين للقرآن الكريم ، وليس قراءة واحدة كما كنت أظن من قبل . ولكنى لم أستطع أن أمنع توارد التساؤلات على خاطرى :

أيهما أفضل ؟ . . . أيهما أصح ؟ . . . أيهما القرآن كما نطقه النبى ؟ .

وتسرعت ساعتها – من فرط توترى – فانحزت إلى رواية حفص التى نشأت عليها .

والتساؤلات رغم بشاعتها لا يجوز أن يلام عليها إنسان مسلم شديد الغيرة على دينه وقرآنه . ولقد علمت فيما بعد – وبعد جهد جهيد – أن ما حاك فى صدرى كان قد حاك فى صدر « أبى بن كعب » إمام القراءات القرآنية ، الصحابى الجليل ، الذى تجدون اسمه مطبوعاً فى كل مصحف . فإليه تنتهى قراءة أغلب القراء . لقد « ارتج عليه » حين أفاق على الرسول الكريم ﷺ وهو يجيز ويصوب قراءة خالفت قراءته التى تعلمها من فيه . لولا أن ضربه الرسول على صدره ليفيق . فالحمد لله الذى ثبته وثبتنى على تقبل « تعدد الحق » ، و « تعدد القراءات » لقرآن واحد . وانهار مفهومى الطفولى ليحل محله مفهوما جديداً .

إنها إرادة الله وحكمته التى شاءت أن يكون « قرآنًا واحداً » ، و « قراءات قرآنية متعددة » ، وهما حقيقتان متغايرتان لشىء واحد .

وشكل العلاقة التى تربط بين « القرآن » و « القراءات » هو النموذج الذى أراده الله للتفاعل بين « المثال » و « الواقع » . فلو شاء سبحانه لجعلها قراءة واحدة ،ولكنها « حكمة بالغة » .

وسعيا وراء فهم تلك الحكمة تواصل الجهد حتى تبين لى أن عدد القراءات القرآنية للقرآن الكريم كان قد تجاوز الحصر فى يوم من الأيام . وفى الوقت ذاته ، تبين لى أيضًا أن عددًا لاحصر له من علماء الأمة الإسلامية وأئمتها قد أفنوا أعمارهم فى خدمة كتاب الله ، حتى وصل إلينا بصورته التى نراها عليه الآن ، مطبوعة فى المصاحف ، متلوة فى شرائط الكاسيت . وأن ذلك لم يتم بين يوم وليلة ، بل استمرت الجهود لمئات السنين ، تصون وترعى ، وتضبط وتؤصل ، وتفسر وتنظر ، حتى تركت لنا تراثا فى « علم القراءات » يباهى به كل مسلم الأمم ، وحتى تقوم الساعة .

وهذا الكتاب ليس سوى جولة فى عالم القراءات ، طولاً وعرضًا وفى اتجاه العمق أحيانًا . ذلك العالم عظيم الاتساع بالغ العمق خطير المزالق ، الذى لم أكن لأخطو فيه خطوة واحدة لو أن القائمين على تنشئتى وتربيتى وتعليمى وتثقيفى قاموا بتحفيظى سورتى الفاتحة والإخلاص بأكثر من قراءة . فلا « يحيك فى صدرى » إن قرأت « ملك » مرة « ومالك » أخرى .

ولا أتردد عندما أتلو « كفوًا أحد » مرة ، و « كفؤًا احد » أخرى ، ولا « يرتج علىّ » عندما أسمع « فتبينوا » مرة و « فتثبتوا » أخرى . فالجميع « متواتر » و « صحيح » ، و « معلوم من الدين بالضرورة » .

بل وأبلغ غاية سعادتى وقمة نشوتى حين أستمع إلى مقرئى المفضل وهو يرتل أو يجود آيات الله البينات « بالسبعة » ... بل « بالعشرة » .

فالقراءة « سنة متبعة » .

لكم أتوق لليوم الذى أستمع فيه لسورة يوسف بقراءة حمزة ، وسورة طه بقراءة أبى عمرو وسورة الأعراف بقراءة يعقوب وقصار السور برواية شعبة عن عاصم والأنبياء برواية قالون عن نافع .

إنه تراثنا العظيم فلماذا لا تعيدونه للحياة يا لجنة « إحياء التراث » ؟ بل ولماذا يصر القائمون على الإعلام المسموع والمرئى على تجهيل الجمهور عندما لا يصرحون باسم الراوى إلا إذا كان « حفص » ، فإذا كانت التلاوة لغيره سكتوا . أعن الحق تسكتون ؟أتريدون أن تجمعوا الناس على قراءة واحدة ؟ .

إن الله لم يرد ذلك ، ولو شاء لفعل . أتقفون ضد إرادته ؟ .

لقد وعد الله بحفظ القرآن ، وأنجز وعده بأن جعله قراءات متعددة ، ولو شاء لحفظه فى قراءة واحدة . فلم الاقتصار على الترويج لقراءة واحدة ؟